

دواعي الفتوحات الإسلامية ودعاوى المستشرقين
تأليف الدكتور جميل عبد الله محمد المصري،
من سلسلة بحوث في التاريخ الإسلامي (٣)

مقدمة:

التاريخ الإسلامي من أهم عوامل بناء الفرد المسلم وتعميق صلته بدينه وأمته وحضارته، ولهذا حرص أعداء الإسلام منذ وقت مبكر على تشويه التاريخ الإسلامي، فنشطت الفرق الضالة - منذ فجر الإسلام- في تزوير النصوص، وإصاق التهم بالصحابه رضوان الله عليهم زورا وبهتانا، واستمر التاريخ الإسلامي يتعرض إلى حملات التشويه المتعمدة عن طريق المؤسسات التبشيرية (التنصيرية) والماسونية والاستشراقية، تحت ستار من العناوين الجذابة البراقة التي تدعي الدقة والموضوعية والحياد والتجرد للعلم، والبحث والجرأة على النقد والتمحيص. وعمد المستشرقون إلى تفسير أحداث التاريخ الإسلامي انطلاقاً من خلفياتهم الثقافية، ووضعوا الفرضيات والتعميمات، وأطلقوا عليها "النظريات"، ووصفوها بالعلمية، وغرض هذا الكتاب عرض بعض دعاوى المستشرقين المتعلقة بجزء هام مشرق من تاريخنا الإسلامي لتشويهه، ألا وهو الفتوحات الإسلامية، ومن ثم يدحض الكتاب هذه الدعاوى بالأدلة والبراهين من الأحداث التاريخية الموثقة.

سرعة الفتوحات الإسلامية المذهلة:

يقول وول ديورانت: " ولد محمد من أسرة فقيرة، في إقليم ثلاثة أرباعه صحراء مجدية، قليلة السكان، أهله من قبائل البدو الرحل، إذا جمعت ثروتهم كلها فإنها لا تكاد تكفي إنشاء كنيسة أيا صوفيا، ولم يكن أحد في ذلك الوقت علم أنه لن يمضي قرن من الزمن حتى يكون أولئك البدو قد فتحوا نصف أملاك الدولة البيزنطية في آسيا، وجميع بلاد المغرب ومصر، ومعظم شمالي أفريقيا، وساروا في طريقهم إلى أسبانيا. والحق أن ذلك الحدث الجلل الذي تمخضت عنه جزيرة العرب، والذي أعقبه استيلاؤها على نصف عالم البحر المتوسط ونشر دينها الجديد في ربوعه، لهو أعجب الظواهر الاجتماعية في القرون الوسطى". (قصة الحضارة)

عالمية الدعوة الإسلامية:

- اتسم الإسلام بطابع العالمية منذ نزلت (اقرأ) داعية إلى العلم والقراءة والفكر. ثم تتابعت الآيات مؤكدة على عالمية الرسالة {إن هو إلا ذكر للعالمين} {إن هو إلا ذكر وقرآن مبين، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين} {وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا} وهذه كلها آيات مكية.

- وأكدت الآيات والأحاديث على مسؤولية أمة الإسلام في حمل هذه الرسالة وتبليغها ونشرها في العالمين، ودعت للجهاد في سبيل هذا: {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين} - وأعلت من شأن الجهاد في سبيل الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الجنة تحت ظلال السيوف"

وبين أن الجهاد عن عصبية أو حمية أو شجاعة أو طمع ليس في سبيل الله، وأن من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، وهو المستحق للثواب العظيم الذي وعده الله تعالى المجاهدين.

ولم يكن الجهاد لإكراه الناس على الدخول في الإسلام، بل لوقف الإكراه على عدم الدخول في الإسلام، وللتمكن لحكم الله.

- ومنذ بدايات الدعوة واطب الرسول صلى الله عليه وسلم على إرسال الرسل والكتب والدعاة للقبائل المجاورة، والملوك والحكام المجاورين، واستقبل الوفود المختلفة، وأرسل السرايا إلى أطراف الجزيرة العربية لتمهيد الطريق للدعاة، وزرع هيبة الإسلام في نفوس السكان فلا يتعرضون لهم بالأذى.

- وبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفتوحات الإسلامية في بدايات الدعوة، فمن ذلك:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَحَدَّثَ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ، أَنَّهُ قَالَ ضَرَبْتُ فِي نَاحِيَةِ مِنَ الْخُنْدَقِ ، فَعَلَّطَتْ عَلَيَّ صَخْرَةٌ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرِيبٌ مِنِّي ؛ فَلَمَّا رَأَيْتُ أَضْرِبُ وَرَأَيْتُ شِدَّةَ الْمَكَانِ عَلَيَّ نَزَلَ فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ مِنْ يَدِي ، فَضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً لَمَعَتْ تَحْتَ الْمِعْوَلِ بُرْقَةٌ قَالَ ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً أُخْرَى ، فَلَمَعَتْ تَحْتَهُ بُرْقَةٌ أُخْرَى ؛ قَالَ ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ الثَّالِثَةَ فَلَمَعَتْ تَحْتَهُ بُرْقَةٌ أُخْرَى . قَالَ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ لَمَعَ تَحْتَ الْمِعْوَلِ وَأَنْتَ تَضْرِبُ ؟ قَالَ أَوْقَدَ رَأَيْتَ

ذَلِكَ يَا سَلْمَانُ ؟ قَالَ قُلْتُ : نَعَمْ قَالَ أَمَّا الْأُولَى فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الْيَمْنَ ؛ وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الشَّامَ وَالْمَغْرِبَ وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الْمَشْرِقَ

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له: يمنعك أن تسلم خصاصة من ترى، وإنك ترى الناس ألبوا علينا مأخذاً - أويداً واحدة، فقلت: أجل فقال: هل أتيت الحيرة؟ فقلت: لا، وقد علمت مكانها، فقال: توشك الظعينة أن تخرج من الحيرة حتى تطوف بالبيت بغير جوار، وتوشك أن تفتح كنوز كسرى بن هرمز، فقلت: كنوز كسرى بن هرمز؟! فقال: كنوز كسرى بن هرمز، مرتين، ويوشك أن يخرج الرجل الصدقة من ماله فلا يجد من يقبلها عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَشْرِ الْحُثَمِيِّ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ

سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ (مسند الإمام أحمد)

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيْرَاطُ فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحْمًا أَوْ قَالَ ذِمَّةً وَصِهْرًا (صحيح مسلم)

وكل هذه المشرات تدل على أن الفتوحات الإسلامية لم تكن مرتجلة أو وليدة الظروف، بل كانت مهمة كلفت بها الأمة المسلمة منذ بدايات الدعوة، وفهمت واجبها فيها جيداً، وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم برسم خططها، بالسرايا والغزوات كغزوة تبوك ومؤتة وغيرها، ثمسار الخلفاء الراشدون من بعده على نفس الخطة، بادئين بإفناذ بعث أسامة، ثم بإرسال الجيوش للفتح المبارك الذي تابعه من بعدهم الخلفاء المسلمون.

دعوى المستشرقين وتفنيدها:

- 1- عدم عالمية الدعوة الإسلامية: وسبق الرد عليها.
- 2- ارتجالية الفتوحات الإسلامية، وعدم وجود خطة للفتح. وقد سبق الرد عليه أيضاً. ومما استدلل به المستشرقون على هذه الفكرة تردد عمر بن الخطاب في الانسياح في بلاد فارس وأفريقيا والهند، وأمره بالاعتصار على بلاد العرب، وزعموا أن هذا برهان على أن الفتوحات لم يكن لها خطة واضحة، بل كانت تتطور بحسب الظروف، وزعم بعضهم أن هذا دليل على أن الهدف من الفتوحات كان قومياً عربياً لتوحيد العرب في دولة واحدة قوية تقاوم دولتي الفرس والروم، لهذا اقتصر عمر على العرب. والجواب أن قرار عمر كان قراراً حكيماً في وقته، وكان خطة سديدة لتثبيت مكاسب الفتوحات، وتمكين الإسلام في البلاد المفتوحة لتتحول شعوبها إلى جنود للفتح، بدل أن تكون شوكة في جنب المجاهدين.
- 3- دعوى إشغال العرب بالفتوحات عن فتنهم وقتالهم الداخلي: قال فيليب حتي (وهو عربي متبن لأفكار المستشرقين): "كان من الصعب كبح جماح القبائل المتوثبة للغزو والقتال، فكان على أولي الأمر أن يوجهوا القبائل في سبل ومنافذ جديدة" "إن الفتوحات بدأت بشكل غزوات تنفيساً للروح الحربية المتأججة في قلوب أبناء القبائل، وخلقاً للمجال الحيوي خارج الجزيرة المكتظة بالسكان" وهم هنا يقيسون تفكير الفاتحين المسلمين على أفكار من عرفوهم من المستعمرين الغربيين. ويكفي لدحض هذا الافتراء أن نذكر أن أبا بكر رضي الله عنه لم يقل أن يسير في جيوش الفتوح مرتد واحد ممن عاد للإسلام، ولم يقل أن يسير في الجيوش إلا من رسخ إيمانه، فلم يختار إذن المتشوقين للحروب ومثيري الشغب والفتن ليشغلهم.
- 4- دعوى أن الفتوحات كانت حروباً دينية، أي لإجبار الناس على الدخول في الإسلام بحد السيف. وقد استشهد الكاتب بأقوال بعض المستشرقين المعتدلين في دحض هذه الفرية، كذلك بنص لأحد القساوسة يتحسر فيه على انصراف رعايا كنيسة عن المسيحية واعتناقهم للإسلام رغم أن أحداً لم يجبرهم أو يرغمهم على ذلك، ثم يذكر نبذاً من الأحداث التاريخية الموثقة التي تبين اهتمام قادة الفتح بالدعوة إلى الله أولاً، والتزام الجيوش الإسلامية بالأخلاق الإسلامية في الحرب والسلم والمعاهدات.
- 5- دعوى التفسير القومي والوطني: زعم كثير من المستشرقين أن من عوامل الفتح الإسلامي وسهولته " وجود العرب في الشام والعراق ومصر، الذين اعتبروا العرب من بني جنسهم، يربطهم بهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام السابقين من الروم والفرس" (بروكلمان) (وهذا ما درسناه نحن في المدارس). ويدهش الكاتب هذه

الدعوى ببساطة بذكر الأحداث التاريخية التي تبين أن العرب المنتصرة في الشام والعراق ومصر هم الذين وقفوا أولاً في وجه الدعوة وجابهوها، وخاضوا المعارك ضد المسلمين إلى جانب الفرس والروم.

٦- دعوى العامل الاجتماعي للفتوحات الإسلامية: زعموا أن الفتوحات كانت بسبب التغيرات الاجتماعية التي مر بها العرب قبل ظهور الإسلام، وأن تعاليم الرسول أسهمت فيها، فكانت الفتوحات حركة تحرير للعرب. قالوا: "إن الدافع للجهاد هو شره الولاة والقواد" (فان فلوتن)، وقال فيليب حتي: "إن الرؤساء والقادة في الجنود الفاتحين كانوا أولاً وقبل كل شيء محاربين دينيين، وإن إيمانهم كان على نحو ما شكلياً، وله كابع انتهازية" " وإن محمداً لم يبدع حركة جديدة بمقدار ما أثار القوى الكامنة لنهضة قومية عربية وانتشار كان قائماً حين ظهر" (دومنيك سورديل)

وللرد على هذه المزاعم يذكر الكاتب مناقب قادة الفتح المشهورين وعلى رأسهم الصحابة عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وأبي عبيدة بن الجراح، وأبو سفيان وعكرمة والنعمان بن مقرن رضي الله عنهم أجمعين، وصفحات من بسالتهم واستماتتهم في الجهاد في سبيل الله، وبين أخلاقيات الفاتحين في معاملة أهل الذمة، وأهل البلاد المفتوحة، واهتمامهم بدعوتهم إلى الله وإلى دين الإسلام، وتواضع القادة مع الجنود، والمساواة والعدالة، وأن المسلمين يجبر عليهم أدناهم، وأنهم أمة واحدة يتساوى فيها العربي والأعجمي والغني والفقير، ووضح دور المرأة في الفتوحات الإسلامية وبطولاتها وتضحياتها، مقارنة هذا بوضعها قبل الإسلام، ليؤكد على أن الإسلام هو الذي أحدث الانقلاب الاجتماعي الكامل، ولم يكن نتيجة له.

٧- دعوى ضعف الدولتين الفارسية والرومية: قال سيديو: "والروم والفرس إذ أضعفهم احتراهم عند الانتصار والانكسار على السواء، بدوا غنيمة سهلة غنية لمن يعرف كيف يأخذها" ورغم أن الدولتين كانتا تتحدران بالفعل نحو الضعف، وكانتا تعانيان من ظروف داخلية عصبية، لكن لم يكن هناك نسبة بالمقاييس المادية بين الفاتحين المسلمين وبين قوى دولة واحدة من الدولتين، فكيف بهما مجتمعتين لا في العدد ولا في العدة ولا التدريب والخبرة العسكرية.

٨- دعوى الدوافع الاقتصادية للفتوحات الإسلامية: وهذه الدعوى أجمع عليها المستشرقون، منطلقين من مقاييسهم المادية البحتة، فاعتبروا الفتوحات للحصول على الغنائم ومن أجل استبدال العرب بصحاريهم الصحريّة الجرداء تلك الأقطار ذات الترف والنعيم.

ويشرح الكاتب مفهوم الجزية، وأنها كانت ضريبة على الذمي مقابل حماية الدولة الإسلامية له، ولا تفرض إلا على القادرين على حمل السلاح، وتسقط عمن لا تقدر الدولة الإسلامية على حمايتهم، وعمن يشارك بالجهاد. قال خالد بن الوليد ﷺ عندما صالح أهل الحيرة: "إنني عاهدت على الجزية والمنعة.. فإن منعناكم فلنا الجزية، وإلا فلا" وقد رد المسلمون الفاتحون لأهل حمص جزيتهم عندما انسحبوا منها لمواجهة القوات الرومية في اليرموك. ومعظم اموال الجزية كانت تنفق محلياً في كل ولاية لأغراض المشروعات العامة.

الخاتمة: لقد كان الدافع الاول والاخير للمسلمين في القيام بهذه الفتوحات تحقيق فريضة الجهاد، وغايتها من حمل الدعوة وتبليغها، وتطبيق أحكام الله على البشرية، وإنقاذها من جاهليتها.

انتهى.

=====

لا تنسونا من دعائكم
أختكم أم عبد الهادي